لمحمد ، لا أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان به ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

الأجر : هو الجُعل مقابل عمل ، وهذه العبارة قالها كل الرسل ، فقد علَّمهم الله أنْ يقول الواحد منهم لقومه : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء] كأنه فى طىِّ هذا الأسلوب ، أنه لو كان هناك تقييم منصف لكنتُ أستحق أجراً على رسالتى ودعوتى ؛ لأننى أجلب لكم بالهداية نفعاً كبيراً ؛ لأنه ليس صفقة فى هذه الدنيا الفانية ، إنما نفعاً باقياً فى حياة خالدة باقية .

لكن الواقع أننى لا آخذ أجرى منكم ، إنما آخذه من الله ؛ لأن العمل الذى أقوم به أكبر من أنْ تُقوِّموه بثمن ، والحق - سبحانه وتعالى - هو الذى يُقوِّم عملى ، وأنا واثق أنه سبحانه سيعطينى ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ]

ومعنى : ﴿فَهُوَ لَكُمْ ﴿٤٧﴾﴾[سبأ] يعنى : إنْ كنتُ أخذتُ منكم أجراً ، فسوف أعمل لكم بهذا الأجر ، أو سيعود جزاؤه عليكم .

وسبق أنْ قلنا : إن كل الرسل قالوا هذه العبارة إلا رسولين اثنين لم تَأْت هذه العبارة فى سياق كَلامهما ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، مما يدل على أن هذه المسألة مبنية بحكمة كبيرة عالية ، فلماذا إبراهيم وموسى بالذات من بين كل الرسل؟

قالوا : لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام أول ما واجه المخالفين واجههم فى عمه[1] ، فلما صادمه عمه ، ورفض دعوته اعتزله ، واكتفى بأن يدعو له ، وليس من المعقول أنْ ينتظر أجراً من عمه ؛ لذلك لم تأتِ فى كلامه مسألة الأجر هذه .

كذلك موسى - عليه السلام - كانت أول دعوته لفرعون ، الذى قال له : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ [الشعراء] يعنى : إنْ كان يستحق أجراً على دعوته لفرعون ، فسوف يستحى أن يطلب منه الأجر ، وقد تربَّى فى بيته ، وفى رعايته .

وكلمة ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ٤٧﴾[سبأ] تحتمل معنيين : أننى أخذتُ أجراً وأعطيته لكم ، أو أنا من الأصل لم أسألكم أجراً ، ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٤٧﴾[سبأ] يعنى شاهد علينا جميعاً ، ويعلم ما قاسيته فى سبيل دعوتكم إلى الحق ، ويعلم ما فعلتموه معى من عناد وتعنُّت ، وهو سبحانه سيُغلى أجرى على قدر معاناتى وما تحملتُه فى سبيل هدايتكم ، والأخذ بأيديكم إلى ساحته .

وإذا كان الإنسان إنْ عمل عملاً لا بُدَّ أنْ يكون له حَظٌّ منه ومَغْنم ومنفعة ، فرسول الله لم يسألكم حتى الأجر على العمل ، فبأىِّ شىء تتهمونه بعد ذلك ؟

---

(١) يذهب فضيلة الشيخ رحمه الله إلى أن آزر هو عم إبراهيم عليه السلام وليس أباه . وقد اختلف فى اسم أبى إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم قال « تارخ » . وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم للصنم الذى كانوا يعبدونه . انظر تفسير القرطبى (٣/ ٢٥٤٤) ، وابن كثير فى تفسيره (١٤٩/٢) ، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤) ، ولسان العرب (مادة أزر) ، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (ص ٩٢ - ٩٦) .

بعد ذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُوضِّح لنا أمراً يتعلق بالحق الذى جاء به رسول الله ، فالكفار كانوا يعترضون على شخص رسول الله ، بدليل قولهم :﴿ءَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. (٨)﴾ [ص]، وقالوا : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

فهم يعترفون بالقرآن ويعلمون أنه ذِكْر ، وأنه لا غبارَ عليه ، المشكلة أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولم ينزل على واحد منهم من عظماء القوم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يقول إن إنزال مناهج الله للأرض لا بُدَّ أنْ تنزل على مصطفًى يصطفيه الله ، لا مصطفًى يصطفيه الخَلْق ، فلا معنى لقولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

لذلك يردُّ الحق سبحانه عليهم بالحجة : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢)﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤)﴾ [الأنعام]

ورحمة الله هى ما ينتفع به الناس ، إما فى الدنيا ، وهذه رحمة تشمل المؤمن والكافر ، وإما رحمة فى الآخرة ، وهذه للمؤمن دون الكافر ، وهذه الرحمة الأخروية دائمة باقية فى نعيم لا يفوتك ولا تفوته ، فإذا كنتُ أقسم لكم أرزاقكم ومعيشتكم فى الحياة الدنيا ، فكيف أَكِلُ إليكم اختيار مَنْ يرحمكم فى الآخرة ؟ هل أقسم لكم الرحمة الموقوتة . وأترك لكم الرحمة الباقية ؟

ثم ينحو القرآن معهم منحًى آخر بعد أنْ وعظهم وتودَّد إليهم ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾

لك أنْ تلحظ هنا حدة الأسلوب ، خلافاً للآيات السابقة التى كانت تعظهم وتتودد إليهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لهم : لا تظنّوا أننا سنظل نتودد إليكم ، أو أنكم الذين ستسيِّرون المراكب ، فالدين سيُظهره الله رغم عنادكم ، والحق سيعلو رغم كفركم .

فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ أى : رداً عليهم ﴿ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴿٤٨﴾ ﴾[سبأ] فبعد أنْ أعطاكم الفرصة ، وبعد أنْ طال تمردكم ، فالآن ربى سيقذف بالحق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

والقذف : الرمى بشدة ، وهى كلمة تُوحى بالعنف والقوة ، إنْ جاءت من البشر ، فما بالك إنْ كان القذف من الله ، والمقذوف من الله هو الحق ، والحق كما قلنا هو الشىء الثابت الذى لا يتغير .

والقذف لا بُدَّ أنْ له غرضاً وغاية ، ومَنْ أراد أنْ يقذف شيئاً عليه أنْ يُحدِّد المسافة لقريب أم لبعيد ، فإن كان لقريب فقلَّما يخطىء القاذفُ المقذوفَ ، وإنْ كان القذف لهدف بعيد فاحتمال الخطأ أكثر ، وهكذا كلما بَعُدَتْ المسافة ؛ لأن معنى القذف تحديد موضع لتصل القذيفةُ إليه ، وتصيب الغايةَ المقصودة منها .

وعندما يكون الموضع قريباً ، فالتغيرات التى ستطرأ عليه قليلة ؛ لأن زمن وصول القذيفة إليه قصير ، على خلاف الهدف إنْ كان بعيداً فهو عُرْضة لأنْ يتغير ، فتختلف مثلاً زاويته بسبب الريح ،

أو الأعاصير أو خلافه ؛ لذلك نحتاج فى هذه الحالة إلى أجهزة وحسابات دقيقة تحسب بُعْد الهدف وقوة المقذوف ، وقوة الريح أى : تتصادم معه وغير ذلك من حسابات السرعة والزمن ، كالذى يرمى الطير مثلاً وهو فى الهواء ، لا بُدَّ أنْ يغير نقطة التنشين لتناسب حركةَ واتجاه الطائر .

ولا أَقْدَر على هذه العملية من علاَّم الغيوب سبحانه ، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ؛ لذلك جاء الحق سبحانه بالصفة التى تناسب الدقة فى هذه العملية ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) ﴾[سبأ] ، فهو سبحانه أولاً يقذف بالحق ، وقذيفته سبحانه لا تخطىء هدفاً ؛ لأنه تعالى علاَّم الغيوب .

والحق الذى يقذف الله به هو المنهج الذى أنزله من السماء يقذفه لغاية وهى الرسالة ، كما قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

إذن : القاذف هو الله ، والمقذوف الحق ، وهو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والغاية المقصودة هى وصول الرسالة إلى مَن اختاره الله لها ، وهذه العملية لا تخطىء ؛ لأن القاذف عالم بكلِّ غيب يؤثر على مسار المقذوف ، فالحق لا بُدَّ أنْ يصل إلى صاحبه المختار له والمصطفى لحمله ، لا إلى سواه .

لذلك هذه الآية تردُّ على هؤلاء الذين يقولون : إن الرسالة أو الوحى أخطأ ، فنزل على محمد بدل أنْ ينزل على فلان[1] ، فهذا تخبُّط لا سند له .

(١) من هؤلاء طائفة من طوائف الشيعة ، وهم أصحاب العلباء بن ذراع الدوسى ، وكان يفضل علياً على النبى ﷺ ، وزعم أن محمداً بُعث ليدعو إلى على فدعا إلى نفسه (الملل والنحل للشهرستانى ٢/ ١٧٥).

وكلمة ﴿الْغُيُوبِ (٤٨)﴾[سبأ] هنا تدل على كثرة المؤثرات التى يمكن أن تعترض القذيفة ، فتحُول بينها وبين هدفها ، وهذه المؤثرات لا يعلمها إلا الله .

فإنْ قلت : الفعل يقذف جاء فى صيغة المضارع الدال على الحال والاستقبال ، يعنى : أن الحق سبحانه عمله أنه يقذف بالحق إلى الرسل ، فهل قذفه إلى رسول الله ؟

تأتى الإجابة فى قوله تعالى فى الآية بعدها :

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ .. (٤٩)﴾[سبأ] يعنى : قذفه بالفعل فى صورة القرآن الذى نزل على محمد الذى اختاره الله للرسالة ولحمل منهجه إلى خَلْقه لينظم به حركة حياتهم ، وإذا كان الحق الواضح الثابت قد جاء وظهر ، والذى قذفه علام الغيوب ، فما موقف الباطل المقابل له ؟ لا بُدَّ أنه يتراجع ، ولا يستطيع الصمود أمام قوة الحق .

﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩)﴾[سبأ] فلا يبدىء فى الأولى ، ولا يعيد فى الأخرى ، يعنى : كما نقول : لا فى العير ولا فى النفير (لا يهش ولا ينش) ، هذا إذا كان للباطل وجود أو ثبات ، إنما الباطل ما هو إلا خيال بعيد فى أذهان أصحابه لا وجودَ له .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا صورة حسِّية للحق والباطل، فيقول سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ..(١٧)﴾[الرعد] يعنى : كل وادٍ يحوى من الماء على قدر اتساعه ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا (١٧)﴾[الرعد]

والزَّبَد هو القشّ والفتات الذى يحمله الماء ، وهو تافه لا نفعَ فيه ، يأتى الهواء فيزيحه هنا وهناك ، وتبقى صفحة الماء نقية لينتفع الناس به .

ومعنى رابياً : طافياً على السطح ، وفى هذا إشارة إلى أن الباطل لا نفعَ فيه ، ولا بقــاءَ له مهما علا ، وأن وجوده كوجــود هذا الغثاء ، الذى لا قيمةَ له ، ولا فائدة منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

نلحظ أنه ﷺ نسب الضلال إنْ حدث إلى النفس ، ولكنه ﷺ نسب الهداية إلى الله وإلى الوحى المنزَّل عليه ؛ لأن الله إذا أنزل منهجاً هادياً لإنسان مختار ، ومجال الاختيار أنْ تُوجد بدائل يختار العقل منها ؛ لأن العقل لا مهمة له فى الأمر الواحد الذى ليس له بديل ، فمثلاً : تقول أريد أنْ أسافر إلى الفيوم ، فلا تجد إلا طريقاً واحداً ، فلا عملَ للعقل والاختيار هنا ، لكن تقول : أريد أنْ أسافر إلى الإسكندرية ، فتجد طريقين : الزراعى وصفته كذا وكذا ومميزاته كذا وكذا ، والصحراوى وصفته كذا ومميزاته كذا .

والله تعالى خلق كونه كله مختاراً ، إلا فى الأمور القضائية القدرية ، فقد جعلها الله قهريةً لا اختيارَ للإنسان فيها ؛ لأن تدخُّلَه فيها يفسدها .

ولا تظن أنك وحدك مختار فى الكون ، فكُلُّ ما حولك من السماء والأرض مختار أيضاً ، إلا أن السماء والأرض والجبال اختاروا مرة واحدة ، ثم سحبوا اختيارهم الكلىّ على كل الجزئيات التى تأتى بعد ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ

وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فالجمادات اختارت من البداية أنْ تكون مقهورة لله عز وجل ، وأبَتْ تحمُّل هذه الأمانة ، أما الإنسان فتحملها وقال : أستطيع بعقلى أن أختار بين البدائل ، وفاته أنه أدرك وقت التحمُّل ، ولم يدرك وقت الأداء ، وما يطرأ عليه من عوارض وشهوات ووسوسة شيطان .. إلخ ؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بأنه كان ظلوماً جهولاً ، يعنى : ظلُوماً لنفسه ، جهولاً بالعواقب .

والمنهج الذى وضعه الحق سبحانه منهج عام ، وُضع للمؤمن وللكافر ، فالله هدى ودلَّ الجميع إلى طريق الخير ، وترك الجميع مختاراً ، فمنهم مَن اختار شهوات نفسه فى الدنيا ، ورأى أنْ يتمتع بها ، ويحدث ما يحدث بعد ذلك ، ومنهم مَنْ تأمل هذا المنهج ، فوجده من مُطاع بمعجزة ، وهذه المعجزة خرقت نواميس الكون ، فهو - إذن - منهج من عليم قادر وإله أعلى ، اختار هذا المنهج لصلاح الخَلْق .

والإنسان عموماً يحب الخير لنفسه ، لكن يختلف الناس فى فهمهم للخير ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : لا تعجل فى دعائك ، وارْضَ بما اختاره لك ؛ لأن حكمك وفَهْمك للخير على قَدْر علمك بالخير ، لكن أنا أعلم منك به ، وأعلم منك باستقبالك لهذا الخير وأثره فيك .

لذلك قلنا : إننا نسمع كثيراً مَنْ يقول : أنا أصلى وأسير على منهج الله ، ومع ذلك دعوتُ فلم يُستَجب لى ، نقول : لأنك دعوتَ بالخير بفهمك أنت للخير ، لكن ربك أعلم منك بالخير لك ؛ لذلك لم يُجبْ دعاءك .

وكثيراً أيضاً ما نسمع أمّاً تدعو على ولدها الوحيد فى ساعة غضب تقول : (إلهى أشرب نارك ، إلهى يجيينى خبرك) بالله ، لو أن الله أجاب دعاءها ، ماذا كانت تقول فى ربها ؟ إذن : عدم إجابة الله لك فيما تدعو أحياناً هو عين الخير لك ، لأنه يعلم حمق دعائك ، وهو رب لا يرضى لك بآثار هذا الحمق ؛ لذلك يُعدِّل لك ما أخطأتَ فيه .

أمر آخر فى هذه المسألة ، فقد يكون الدعاء بخير حقيقى ، لكن جاء هذا الدعاء من غير مضطر ، إنما جاء كما نقول (بغددة) ، والحق تبارك وتعالى وعد بإجابة المضطر إذا دعاه ، فقال سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (٦٢) ﴾[النمل] فلو كنتَ مضطراً لأجابك ؛ لأن المضطر استنفد كل الأسباب الموهوبة له من الله ، وعجزَتْ قوته ، فلجأ إلى الله المسبِّب سبحانه ، وأغلبنا يدعو الله عن غير اضطرار .

إذن : حين لا يُجاب دعاؤك ، فاعلم أنه دعاء بشرٍّ تظنه أنت خيراً ، والخير فى ألاَّ يجيبك الله ، أو أن دعاءك عن غير اضطرار .

نعود إلى كلامنا عن المنهج الذى وضعه الله لهداية الناس جميعاً ، ونقول : الذى آمن بهذا المنهج واهتدى به يعينه الله ويزيده هداية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] والذى انصرف عنه وضَلَّ كذلك يزيده الله من الضلال ، ويختم على قلبه ، بحيث لا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه كفر ، ذلك لأنه تعالى رب يعين عبده على ما أحب ، ويزيده مما يريد .

إذن : طالما هناك اختيار فى قبول المنهج فلا بُدَّ أن توجد هداية ، ويوجد ضلال ، الهداية تجلب الخير والثواب ، والضلال يجلب الشر والعقاب ، هنا الحق سبحانه يُوضِّح لنا أن الضلال يُنسب إلى النفس ، أما الهداية فتُنسب إلى الله وإلى منهجه ، وقد قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ (٧٩)﴾ [النساء]

وقال سبحانه قبلها : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ (٧٨)﴾[النساء] لماذا ؟ لأنه سبحانه جعل الطريقين ودلَّ الجميع ، فإنْ نظرتَ إلى الفعل فالله هو الذى أمدَّك ، كما قال سبحانه : ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠)﴾ [الإسراء]

فالله أعطاك مثلاً اللسان تنطق به كلمة التوحيد ، أو تنطق به كلمة الكفر والعياذ بالله ، فاللسان لم يَعْصك ، لا فى هذه ولا فى تلك ، فمَن الذى أعطاك حرية الاختيار ؟ الله ، لذلك قلنا : لم يكفر كافر قهراً عن الله ، أما عدم رضائه عنه ، فهذا موضوع آخر .

لذلك قلنا : الرجل الذى أعطى لابنه جنيهاً مثلاً - وهو قوة شرائية - وقال له : اذهب إلى السوق واشتر به ما تريد ، لكن يُرضينى أنْ تنفقه فى شىء نافع ، فالذى أعطاه القوة الشرائية أبوه ، والذى ترك له الخيار أبوه ، وهو قادر أنْ يحجر عليه ويسلبه هذه القوة ، وهذا هو الاختيار .

كذلك الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يذهب الإنسانُ إليه وهو مختار ، وهو قادر ألاَّ يذهب ، يريد أن يذهب العباد إليه عن حب ، وعن رغبة ، وعن إيمان ، لا عن قهر وجبروت ؛ لأنه سبحانه - كما سبق أن قُلْنا - يريد قلوباً تخشع ، لا قوالب تخضع .

فقـوله تعالى : ﴿قُلْ إن ضَلَلْتُ (٥٠)﴾[سبـأ] يعنى : أنا وأنتم سواء فى هذه المسألة ؛ لأن الضلال نتـيجة للسيئات التى تقـترفها النفس ، فهى سـبب الضلال ﴿قُلْ إن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي (٥٠)﴾[سبأ] أما الهداية فـمن الله ؛ لأنها بسـبب منهج الله ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي(٥٠)﴾ [سبأ]

لكن النبى ﷺ مـتفق وأمـته فى نسـبة الضـلال إلى النفس ، لكن يختلف عنـهم فى الهداية ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي (٥٠)﴾[سبـأ] فالهداية جاءته ﷺ من الله مباشرة قبل أنْ يبعث له رسولاً بالرسالة ، وقبل أنْ ينزل عليه وحـى السماء ، أما هداية الأمة فـبواسطة الرسول الذى يُبلِّغ منهج الله ويأتى بالمعجزة .

فـهداية رسـول الله كـانت بدايةً لمـا اختـاره الله رسـولاً على هذا الوضع من الهداية ، ثم أنزل عليه المنهج لهداية الأمة .

وقوله تـعالى : ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)﴾[سبـأ] سمـيع أى : يعرف مطلوبى ، ويسمع منى كل نَفَس ، وهو سبحـانه مع سمعه قريب منى لا يبطىء علىّ فى الإجابة ؛ لأن الفـعل من الله تعـالى لا يحـتـاج إلى علاج ومزاولة ، إنما الفعل من الله بكُنْ .

ثم يرجع الحق سبحانه إلى رسوله ﷺ ليُسلِّيه :

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ (٥١)﴾[سبأ] أسلوب شرط ورد عدة مرات فى القرآن الكريم ، وتلحظ أن السياق لم يذكر له جواباً ، واقرأ :

﴿ولَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣١)﴾ [سبأ]

﴿ولَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا .. (٢٧)﴾ [الأنعام]

فالجواب هنا محذوف ؛ لأنه معلوم من السياق ، فالتقدير هنا : ولو ترى يا محمد إذ فزعوا يوم القيامة لرأيتَ شيئاً عظيماً وأمراً عجيباً يريح قلبك ، وينتقم لك جزاءَ ما كذَّبوك وعاندوك ، وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦)﴾ [المطففين]

فالذين طغَوْا وتجبَّروا فى الدنيا ، وصادموا كلمة الحق ، وكانوا عُتَاة وفراعنة تراهم فى الآخرة حين يصيبهم فزعها (بسابس) قططاً وأرانب .

ومعنى ﴿فَلا فَوْتَ (٥١)﴾[سبأ] لا مهربَ ولا نجاةَ لهم ؛ لأن الإنسان قد يفزع ويخاف من شيء ، لكن يستطيع الهرب منه ، أو ربما ينقذه أحد ، أما هؤلاء فسوف يفزعون دون منقذ ودون مهرب ولا مفر ، وهذا يشفى صدرك وصدور المؤمنين الذين أوذوا معك فى سبيل نشر دعوة الحق .

فكما وقفوا فى وجه دعوة الله سيقفون يوم القيامة موقفَ الذلة والمهانة ، وتأمل : ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣١)﴾[سبأ] ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ (٢٧)﴾[الأنعام] ﴿وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ (٣٠)﴾[الأنعام] يعنى : ينتظرون أنْ يُؤذَن لهم ليرَوْا ماذا سيقول شفعاؤهم الذين عبدوهم من دون الله ، لكن يُفاجأون بأن شفعاءهم وكبراءهم يسبقونهم إلى النار ، ويتقدمونهم إلى العذاب كما تقدَّموهم فى الضلال .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ لَننزِعَنَّ من كُلِّ شيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَـٰنِ عتيًّا ۝٦٩﴾[مريم] وقال عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾ [هود]

وهكذا يُيئِّسهم الله من النجاة ؛ لأنهم كانوا ينتظرون هؤلاء الشفعاء وهؤلاء الرؤساء ليدافعوا عنهم ، فإذا بهم يتقدمونهم إلى العذاب .

وهذه الوقفات التى ذكرناها للكفار يوم القيامة ، كل وَقْفة منها لها ذلة ، وكل وَقْفة لها فزعة ، وكل وقفة عذابٌ فى حدِّ ذاتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : لو رأيت وقفاتهم وفزعهم لَشَفى غليلك ، ولعلمتَ أننا استطعنا أنْ نجازيهم بما يستحقون .

وسبق أنْ مثَّلْنا لهذا الموقف بواحد (فتوة) أو (فاقد) يُذل أهل بلده ويُخيفهم ، فالكل يخافه ويجامله ويتقى شرَّه ، وفى إحدى المرات قبضتْ عليه الشرطة وساقوه فى السلاسل ، فترى أهل البلدة فرحين يتغامزون به ، ونسمع فعلاً فى مثل هذا الموقف مَنْ يقول (لو شفتْ اللى حصل لفلان) ، والمعنى : رأيتَ أمراً عجيباً لا يُتخيَّل فى الذهن .

ومعنى : ﴿وَأُخِذُوا ۝٥١﴾ [سبأ] أُهْلكوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾[سبأ] هو موقف القيامة ومكان الحساب . يعنى : لم يترك لهم الحق سبحانه بحبوحة ، إنما أخذهم من الحساب إلى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

سبحان الله ، فبعد أنْ فعلوا برسول الله وأتباعه ما فعلوا ، وبعد أنْ فَزِعوا وحاق بهم العذاب يعلنون الإيمان ويقولون﴿ آمَنَّا بِهِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سبأ] ، وما أشبه هذا بإيمان فرعون لما أدركه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس] فردَّ الله عليه ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس] يعنى : هذا وقت لا ينفع فيه إيمان .

وهنا يردُّ الحق عليهم إيمانهم ، فيقول : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ[(١)] ﴿٥٢﴾ ﴾ [سبأ] أى : تناول الإيمان ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سبأ] كلمة(أنَّى) يعنى: كيف لهم الإيمان الآن ، وهم فى موقف الموت أو البعث ، فقد كان الإيمان قريباً منهم فى الدنيا ، أما الآن فهو أبعد ما يكون عنهم .

لذلك استخدم السياق أداة الاستفهام (أنّى) ولها معنيان : بمعنى كيف الدالة على التعجُّب يعنى : هذا أمر غريب وعجيب منهم ، وتأتى (أنّى) بمعنى من أين كما جاء فى قول سيدنا زكريا للسيدة مريم : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

يعنى : من أين لك هذا الرزق ؟ لذلك ينبغى لولى الأمر أن يتعلَّم من هذه الآية إذا رأى عند أهله شيئاً لم يأتِ لهم به أن يسألهم من أين جاءوا به ، وكيف وصل إلى بيته ، وهذا احتياط واجب ؛ لأن هذا الشىء قد يكون تسللاً أو استمالة إلى معصية .

وترد السيدة مريم على هذا السؤال ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ

(١) التناوش : التناول من قرب . والمعنى : كيف يستطيعون تناول الإيمان وهم قد أُخذوا للعذاب أخذاً لا فوت منه ولا مهرب ، وبذلك صاروا فى مكان بعيد جداً عن الإيمان وعن قبول الاعتذار ، وقد بَعُد وقت التناوش ، فلا أمل فى تناول أى خير لهم . [القاموس القويم ٢/٢٩٢]

اللَّه ﴿٣٧﴾ ﴾[آل عمران] ثم تذكر حيثية ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران] يعنى : إياك أنْ تحسب المسائل بقدرتك ، فتقول : من أين أتتك فاكهة الصيف فى الشتاء ، أو فاكهة الشتاء فى الصيف ؟ لأن هذا عطاء الله وقدرته .

وكأن هذا القول من السيدة مريم قد نبّه سيدنا زكريا إلى قضية غفل عنها ، فهزَّتْه هذه الكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

عندها قال فى نفسه إذن : لماذا لا أدعو الله أنْ يرزقنى الولد بعد أنْ بلغْتُ من الكبَر عتياً وامرأتى عاقر ، فعطاء الله لا يخضع للأسباب ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وهكذا استفاد سيدنا زكريا من هذه القضية العقدية التى نبهته لها السيدة مريم ، وفعلاً استجاب الله له وأعطاه ولداً ، بل أكَّد ذلك بأنْ سمَّاه له ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران]

وهذا تسجيل للبُشْرى وتأكيد لها ، ومن ذلك ما رُوى عن سيدنا أبى بكر ، فقبل أنْ يموت أوصى السيدة عائشة بخصوص الميراث من بعده ، فقال لها : إنما هما أُختاك وأَخَواك . فى وقت لم يكُنْ لها إلا أخوان هما : عبد الرحمن ومحمد ، وأخت واحدة هى السيدة أسماء، لكن بعد موت الصِّدِّيق ولدتْ زوجته بنت خارجة[1] بنتاً فصدقتْ وصية

(١) هى : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبى بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التى مات أبو بكر وهى حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك. تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبى بكر . [انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٤٨/٨)] .

الصِّـديق ، وهو - رضى الله عنه - لم يـكُنْ علم الغـيب ، إنمـا عُلِّم ، وأنطقه الله بذلك ، لأنه لا يـعلم ما فى الأرحام إلا الله ، فـلا أحد يعلم ما فى الأرحام بذاته ، إنما يُعلَّم من الله .

وقد ورد عن سـيدنا رسول الله أنه قـال لأهل المدينة : « المحـيا مَحْياكم ، والممات مماتكم »[1] فبيَّن ﷺ أنه سيموت فى المدينة ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]

فـرسول الله ﷺ لم يكُنْ يـعلم غيـبـاً ، إنما عُلِّم الـغيبَ من عـلاَّم الغيوب سبحانه ؛ لذلك لا نقول فلان عالم غيب ، إنما مُعلَّم غيب.

لذلك كثـيراً ما نرى بعض أهل الصـلاح أو الذين كشف الله عنهم الحجاب يرى السيـدة الحامل فيقول لها سَمِّ هذا الولد محـمداً ، وفعلاً تلد ولداً ، وتسميه محمداً ، هذا تسجيل للبُشْرى وإلهام من الله وتعليم لمن اختارهم الله لهذا العلم .

والناس حين يُسمون يختارون الاسم الذى يُتفَاءل به ، فيقولون : سعيد ، ذكى .. إلخ تفاؤلاً أن يكون الولد بالفعل سعيداً أو ذكياً ، لكن أتملك أن يكون الاسم على مُسمَّاه ؟ لا لا أحد يملك أنْ يكون ولده كما يريد ، لكن إذا كـان المسمِّى هو الله سـبحانه فـهو وحـده القادر على تحقيق المسمَّى .

لذلك لمـا وهب لسيـدنا زكريا الولد وسـماه (يحـيى) لم يفطن الناس إلى هذه التـسمـية ، وأنهـا من الله تعنى أن هذا الولد سـيحـيا ولا يموت ، فالله سماه يحيى ليحيا ، وفى هذه التسمية إشارة إلى أنه سيموت شـهيداً ، فتتصـل حياة الدنيا بحياة الشهادة ، ولو فطن قَاتلوه إلى هذا المعنى ما قتلوه .

---

(١) أخرجـه مسلم فى صحيـحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتـاب « الجهاد والسيـر » أنه قال للأنصار فى حديث طويل : « أنا محمد عبـد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

لذلك لما ذهبنا لزيارة قبر سيدنا حمزة قلنا هناك:

أَحَمْزَةَ عَمّ المصْطَفى أنتَ سَيِّدٌ   عَلى شُـهَداء الأرْضِ أجمعهمْ طُـرّا

وحَسْبُكَ من تِلْكَ الشهادةِ عصْمةٌ   من الموْتِ فى وَصْلِ الحياتَيْن بالأُخرى

وهذه القضية العقدية التى استفاد منها سيدنا زكريا فطلب من الله الولد ، استفـادت منها السيدة مريم بعد ذلك حـين حملت بلا ذكورة ، فتـذكرت ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمـران] فاطمأن قلبها .

فكلمة (أنّى) فى قـوله تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)﴾ [سبأ] هى بمعنى كـيف ، ومثلها قـول السيدة مريم لمـا بُشّرت بعيسى : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ (٢٠)﴾ [مريم]

ومثل قـوله تعالى : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا (٢٥٩)﴾ [البقرة] فالسؤال هنا عن كيفية الإحياء ، وهى مسألة لا تُقال إنما تُشاهد ، ألم نقرأ قول سيدنا إبراهيم :﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠)﴾ [البقرة]

وللمستشرقين اعتراض على هذه الآية . يقولون : كيف يخاطب الله أبا الأنبياء إبراهيم ويقول له ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن (٢٦٠)﴾[البقرة] ويقول هو ﴿بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠)﴾[البـقرة] ، وهـل الإيمـان إلا اطمئنان قلب إلى عقيدة ما ؟

ونقـول : الإيمان خـلاف الاطمئنان هنا ، فـالإيمان بأن الله يحـيى الموتى موجود عند إبراهيم ، فهو لـم يسأل : أيوجد إحياء للموتى من الله أم لا يوجد ؛ لأنه يؤمن بقدرة الله على إحيـاء الموتى ، إنما يسأل عن كيفية ذلك ، فالاطمئنان المقصود على الكيفية ، بدليل أن الله تعالى